



بليز باسكال



كيف

تبني فكرتك درجةً درجةً؟

بقلم رشاد عبد القادر · ١٠ آذار ٢٠٢٦ · قراءة في ٥ دقائق

هذا التكوين المبكر ترك أثره في أسلوبه. فالكتابة عند باسكال ليست انسياً عاطفياً، بل بناءً محكم. جملة قصيرة في الغالب، وإذا طالت ظلت مشدودة إلى منطق صارم. يعتمد التوازي، ويُحكم المقابلة، ويصعد الفكرة درجةً بعد درجة. كل جملة نتيجة لما قبلها، وكل عبارة تدفع التالية نحو خاتمة لا مهرب منها. لا يزخرف، لا يستطرد؛ بل يراكم، كأنه يحلّ مسألة رياضية، حتى يصل إلى نتيجة تبدو أقرب إلى برهان منها إلى رأي.

توفيت والدته وهو في الثالثة من عمره، فوجد نفسه في بيت يديره أب لم يدخله مدرسة، بل اختار أن يعلمه في البيت، مؤمناً بأن العقل ينبغي أن ينضج على مهل. لذلك منعه من تعلّم الرياضيات في طفولته المبكرة، رغم ميله الواضح إليها، حتى لا «تسرق» اهتمامه باللغات والآداب. غير أن المنع لم يُطفئ الفضول، بل أشعله. فبليز باسكال (1623-1662) سيصبح لاحقاً عالم رياضيات وفيزياء قبل أن يكون كاتباً في اللاهوت.

يتوق الإنسان إلى العظمة فيرى نفسه ضئيلاً؛ يتوق إلى السعادة فيرى نفسه شقيماً؛ يتوق إلى الكمال فيرى نفسه مليئاً بالنقائص؛ يتوق إلى أن يكون موضع حبّ الناس وتقديرهم فيرى أن عيوبه لا تستحق إلا نفورهم وازدراءهم. هذه الحيرة التي تعتريه توقظ في داخله أظلم الأهواء، وأجزمها على الإطلاق، إذ تنشأ في نفسه كراهيةٌ مريرة لتلك الحقيقة التي تؤنبه، وتعزّيه أمام عيوبه.

● باستخدام فعل «يرى» يصنع بناءً متوزياً ● كسر البناء النمطي للجملة

● التقابل بالأضداد

● مقطع من خواطر باسكال (1670)

النص الأصلي

Man would fain be great and sees that he is little; would fain be happy and sees that he is miserable; would fain be perfect and sees that he is full of imperfections; would fain be the object of the love and esteem of men, and sees that his faults merit only their aversion and contempt. The embarrassment wherein he finds himself produces in him the most unjust and criminal passions imaginable, for he conceives a mortal hatred against that truth which blames him and convinces him of his faults.

هذه الحيرة التي تعتريه توقف في داخله أظلم الأهواء، وأجْزَمَها على الإطلاق...

بعد سلسلة من الانكشافات، تتحول الحيرة إلى أثر. لم يعد الأمر وصفاً لحالة، بل نتيجة لها. وهكذا لا يكون التصاعد معنوياً فقط، بل لغوياً:

من جملة بسيطة، إلى جملة أطول، إلى تركيب معقد، إلى نتيجة أخلاقية.

التصاعد اللغوي هنا ليس زينة بل آلية. كل جملة ترفع السقف قليلاً، حتى يصبح الإنسان محاصراً داخل بنيته اللغوية نفسها.

يعتمد باسكال في هذا النص على توازن لغوي صارم، يكاد يكون هندسياً. البنية تتكرر دون حشو:

يتوق الإنسان إلى العظمة فيرى نفسه ضئيلاً؛

يتوق إلى السعادة فيرى نفسه شقيماً؛

يتوق إلى الكمال فيرى نفسه مليئاً بالنقص؛

يتوق إلى أن يكون موضع حب الناس وتقديرهم فيرى أن عيوبه لا تستحق إلا نفورهم وازدراءهم.

النمط واضح:

يتوق إلى (شيء).. فيرى نقيضه.

هذا التوازي يخلق إيقاعاً ثابتاً، كأننا أمام معادلات متتالية. لكن الأهم أن التوازي هنا ليس شكلياً، بل وظيفياً.

لو كتب باسكال الفكرة في جملة واحدة لقال مثلاً:

الإنسان يتوق إلى أشياء كثيرة لكنه يكتشف عكسها.

عندما عُيِّن والد باسكال مسؤولاً عن تحصيل الضرائب في مدينة «روان»، كانت الحسابات معقدة ومتعبة. فاخترع باسكال الشاب آلة حاسبة ميكانيكية له لتسهيل العمل.

في هذا النص، لا يقدم باسكال فكرة واحدة مكتملة، بل يبنينا درجةً بعد درجة، عبر تصاعد لغوي محسوب. يبدأ بالجملة الأساسية التي تؤسس النمط:

يتوق الإنسان إلى العظمة فيرى نفسه ضئيلاً؛

يتوق إلى السعادة فيرى نفسه شقيماً؛

يتوق إلى الكمال فيرى نفسه مليئاً بالنقص؛

التصاعد هنا ليس في عدد الكلمات فقط، بل في الكثافة الدلالية. فالفارق بين «العظمة/الضالة» و«الكمال/النقص» أعمق من مجرد تضاد لفظي؛ إننا ننتقل من مقارنة خارجية (كبير/صغير) إلى انكشاف داخلي (مليئاً بالنقص). الجملة الثالثة أطول، وأشد إحاطة، وكأنها تحاصر الإنسان من الداخل.

ثم يبلغ التصاعد ذروته في الشطر الرابع:

يتوق إلى أن يكون موضع حب الناس وتقديرهم فيرى أن عيوبه لا تستحق إلا نفورهم وازدراءهم.

هنا تتضخم البنية اللغوية:

لم يعد «يتوق إلى + اسم»، بل «يتوق إلى أن يكون + تركيب اسمي ممتد»، ويقلبه «فيرى أن عيوبه...» مع ربطه «لا تستحق إلا..». الجملة تتمدد، وتتشعب، ويزداد عدد المكونات، كأن الضغط النفسي ينعكس في طول التركيب نفسه.

ثم تأتي الجملة التالية لتستوعب كل هذا التراكم:

لكن التوازي يمنع الاختصار. إنه يفرض التكرار. كل مرة تتكرر الصيغة، يشعر القارئ أنه يعرف ما سيأتي:

يتوق... ثم يسقط.

لكن رغم توقعه، يتلقى الصدمة من جديد. التوازي هنا لا يخفف المفاجأة، بل يعيد إنتاجها. لاحظ أيضاً أن الأفعال لا تتغير داخل البنية نفسها:

يرى

يرى

يرى

التوازي ثابت. كأن الهيكل صلب، لكن المعنى يتبدل في كل مرة. ثم إن هذا التوازي يمنح النص نوعاً من الحتمية. ليس هناك انحراف، ولا التفاف، ولا خروج عن النسق. وهذا ما يجعل الفقرة تبدو كأنها حُكم لا كأنها رأي.

ما يفعله باسكال في هذا المقطع ليس مجرد مقابلة بين كلمتين، بل ضغط المعنى داخل مفصلين متقابلين. انظر إلى الأزواج:

العظمة / الضلالة

السعادة / الشقاء

الكمال / النقائص

حبّ الناس / نفورهم وازدراءهم

في كل مرة، لا يشرح المسافة بين الطرفين، بل يضعهما متجاورين في جملة واحدة. لا توجد جملة انتقالية، ولا تفسير، ولا تمهيد منطقي. التوق يقف مباشرةً أمام نقيضه. هذا هو التكثيف.

بدل أن يقول:

يتوق الإنسان إلى العظمة، لكنه عندما يتأمل نفسه يرى أنه صغير...

يحذف كل الروابط التفسيرية، ويكتب:

يتوق... فيرى...

الفاء هنا ليست مجرد أداة ربط، بل أداة صدمة. التوق لا يمرّ بمرحلة انتظار؛ ينقلب فوراً إلى رؤية.

التضاد هنا ليس بلاغة تقليدية من نوع «الطباق»، بل آلية ضغط لغوي. فالكلمتان المتقابلتان محشورتان داخل بناء جملة واحدة، فلا يملك القارئ مساحة للتنفس بينهما.

لاحظ أيضاً أن التضاد يتعمق تدريجياً:

«العظمة / ضلّاته» تضاد كميّ.

«السعادة / شقاء» تضاد وجداني.

«الكمال / النقائص» تضاد وجودي.

«حبّ الناس / ازدراءهم» تضاد اجتماعي أخلاقي.

التكثيف لا يحدث في المفردة فقط، بل في انتقال الحقل الدلالي نفسه. وكأنّ التضاد يتسع ليشمل كل طبقات الإنسان: مكانته، شعوره، جوهره، علاقته بالآخرين.

هكذا تتحول الجملة إلى بناء مضغوط:

رغبة في صدر الجملة، ونقيضها في عجزها، ولا شيء بينهما.

وبعد سلسلة الجمل المتوازية القصيرة نسبياً، يحدث كسر إيقاعي واضح:

هذه الحيرة التي تعترية توظف في داخله أظلم الأهواء، وأجزمها على الإطلاق، إذ تنشأ في نفسه كراهيةً مريرة لتلك الحقيقة التي تؤنبه، وتعيّره أمام عيوبه.

حتى هذه اللحظة، كانت البنية ثابتة:

يتوق... فيرى

ثم فجأة يتغير كل شيء. لم نعد أمام رغبة ورؤية، بل أمام نتيجة نفسية. لم يعد الإنسان يرى فقط، بل يتفاعل. الحيرة تتحول إلى أهواء، والأهواء إلى كراهية.

وبلاحظ هنا أمران لغويان مهمان:

الجملة أطول وأكثر تشعباً من سابقتها. وتدخل أدوات سببية: «إذ تنشأ...»

الانتقال من جمل تقريرية قصيرة إلى جملة تفسيرية أطول يعكس تحوّلاً داخلياً: من وصف الحالة إلى تحليل أثرها. الإيقاع الذي كان منتظماً يبدأ بالتمدد. وكأنّ النظام الذي حاصر الإنسان في البداية ينفجر أخلاقياً في النهاية.

إذا نظرنا إلى الفقرة كاملة، سنجد أنها ليست مجرد تعداد للرغبات، بل مسار منطقي محكم:

الإنسان يتوق.

يرى التناقض.

يشعر بالحيرة.

ينشأ داخله هوى مظلم.

يوجّه الكراهية نحو الحقيقة نفسها.

التصعيد هنا ليس في اللغة فقط، بل في البنية الفكرية.

نبدأ بالرغبة، وهي حركة طبيعية.

وهذا هو جوهر أسلوب باسكال: لا يصحّ بالحكم منذ البداية، بل يقودك إليه عبر سلسلة لا تبدو قابلة للكسر. ولهذا تبدو الجملة الأخيرة حتمية. ليست رأياً، بل نتيجة معادلة رياضية.

«كيف تبني فكرتك درجةً درجةً؟» — مِمَّا قُرأت · بقلم رشاد عبد القادر · ١٠ آذار ٢٠٢٦
almuharir.net · تاريخ السحب ١٩ تشرين الأول ٢٠٢٦

ثم الرؤية، وهو إحراج معرفي.
ثم الحيرة، وهو توتر نفسي.
ثم الأهواء، وهو انحراف أخلاقي.
وأخيراً الكراهية للحقيقة، وهو سقوط وجودي.
كل خطوة نتيجة منطقية لما قبلها.